

الدراسات العربية والإسلامية في اسكوتلندا

ترجمة وتحليل الدكتور الحاج مير

ان تدشين أول كرسي للدراسات العربية الإسلامية في اسكوتلندا [1]، كان فرحة مناسبة للاطلاع على ما سبق للاسكوتلانديين ان انجزوه في هذا المضمار وفي نفس الوقت تقديرا للأمال المنوطة بهذه الدراسات في المستقبل . وسأبين هنا كيف ان الدراسات العربية التي قام بها الاسكوتلانديون ترجع الى عهد يتوغل في القدم حتى يكاد يتوارى في غباب الاساطير ، ولذا فلا يمكننا ان ندعي وجود اية صلة مباشرة مع محمد نفسه . وعلى كل فهناك مصدر يحيط به الالتباس ويندرنا بتحويل الرسول الى بطل قومي اسكوتلندي .

وكان مؤلفو الكتب التاريخية المقررة للمدارس الابتدائية في اسكوتلندا قد سبقوا كليات التاريخ في الجامعات بتوسيعهم افق نظرتهم في اوربا في غياهب القرون الخوالي وربما سمعوا النقاش الذي احتدم سنوات حول قوانين حمورابي .

ان المصدر الحقيقي للارتباك الذي يهمننا اليوم هو ان الفصل الذي يعالج « كولومبا في يونا » في هذه الكتب المقررة يمهّد الى ان يتبعه فصل من محمد واصل الاسلام . وقد ظهر الجواب عن هذا فعلا منذ بضع سنين في مدرسة بمدينة ادنبره Edinburgh

يقول : « كان محمد مسؤولا عن انتشار المسيحية في انجلترا ، اذ كان عليه ان يهاجر من بلده الاصلي لان الناس لم يصدقوه . وقد اصطحب معه «بابا» كان اسمه غريغوري . وقد نزلا في مكان يدعى اليوم

« يونا Iona » حيث اخذ يعظ الشعب ثم انتقل الى انجلترا ليشر بين الناس هناك ، وقد استقبلوه قبولا حسنا . واذا ما طرحنا الغموض جانبا ، فان اول مستشرق اسكوتلندي كان له شأن يذكر هو : ميخائيل سكوت Michael Scot الذي تجلس نشاطه حوالي عام 1200 م ولكنه كان قد اخذ او خيل للناس انه قد انغمز وبالاسف بأعمال الشعوذة والسحر فأصبحت له شهرة واسعة كساحر حتى انه حظي بمكانة رفيعة في جيم داثي ، والسير والتر سكوت استخدم - لحد بعيد - أسطورة « قصيدة النشد الأخير » حيث يقول : لقد شق جبال ايلدون Eildon الى ثلاث وشكمن عنان نهر « التويد Tweed بصخرة » ، وهناك ادعاء اقل مبالغة يقول بانه « اقام لاصدقائه وليمة احضر اطباؤها بواسطة ارواح من مطابخ فرنسا واسبانيا الملكية » الامر الذي يعتبر بسيطا وليس بحاجة الى تفسير عن طريق الارواح . وفي القرن الثامن عشر، كانت اسبانيا الإسلامية متقدمة جدا على اوروبا الغربية : في فنون العيش الرفد وخاصة في ميدان التائق في الماكل والمشرّب ، ومما لا شك فيه ان « ميخائيل سكوت » كان قد احضر معه من اسبانيا بعض الوصفات لاكلات جديدة غير معروفة بشائنا كما يفعل اليوم السياح المعاصرون عندما يفكرون بمفاجأة اصدقائهم باكلة Gazpacho الفاز باخو »

والحقيقة المقولة عن سيرة «ميخائيل سكوت» هي انه درس العربية في طليطلة حيث التقى بفلاسفة مسلمين ويهود يتكلمون العربية فاصدر مع بعض

1 (المقال للسيد W. Montgomery Watt استاذ العربية والدراسات الإسلامية في جامعة ادنبره (اسكوتلندا)

الدين تعاونوا معه الترجمات اللاتينية الاولى لبعض مؤلفات ارسطو، والتعليقات العربية التي كانت قد وضعت حولها .

ومنذ ذلك ولبضع قرون اخرى لم يعد هنالك اي اهتمام اسكولندي بالعربية وذلك اما بسبب التخوف من خطر التورط في الفنون السوداء (السحر والسموعة) واما لاسباب اكثر تفاهة ، وربما كان رئيس الاساقفة لود قد تابع امر انشاء كرسي للعربية في اوكسفورد وآخر في ادنبره لولا ان جيني غيدس Jenny Geddes كان قد رفض ذلك الكرسي احتجاجا على طقوسه الدينية اسكندروس Alexander Ross وبعد هذا بفترة قصيرة اي في عام 1649 كان هنالك عالم اسكولندي يدعى اسكندر روس قد اخذ يهتم بالدين الاسلامي حتى قام بترجمة القرآن من الفرنسية الى الانجليزية ولكن الشك في كل ما هو اسلامي (الذي ورثه الاوربيون بثائير الدعاية التي اثارها الحروب الصليبية) كان لا يزال قويا مما جعل روس يفكر بأنه من الاصوب ان يضع لترجمته عنوانا سهلا : وهو « تحذير ضروري لاولئك الذين يرغبون في معرفة هل هنالك فائدة او خطر في قراءة القرآن . وقد تحدث في افتتاحية هذا المقال من الرجل العربي العظيم ، اي محمد الذي وصل بعد مرور الف سنة - عن طريق فرنسا - الى انجلترا ، ومن قراءته المشحون بالاطفاء والذي هو وليد مشوه كوالديه ومنمغم بالهرطقات .

ومن الممكن ان يكون الكثير من هذا القدر يهدف لاختعاد الانتقادات العدائية . ان نظرية روس للمسلمين كانت نظرة احترام وقد سبق بيير بيل Pierre Bayle صاحب « القاموس Dictionary الشهير باستخدامه فضائل الاسلام كمعول يشهر به نقائص المسيحية المعاصرة . وكما اننا عند قراءتنا للقرآن ، نجد الكثير من التشويهاات تقع فيه ايضا على بعض الجواهر من الفضائل المسيحية . والواقع ان المسيحيين لو ارادوا قراءته وملاحظة شرائع المسلمين وسيرهم بجهد ، لوجدوا عندما يطلعون على حماس المسلمين في اعمال الورع والتقوى والاحسان وعلى ما يتصفون به من الاخلاص والنظافة والوقار في مساجدهم وكذلك مدى طاعتهم لشيوخهم حتى ان التركي العظيم اي السلطان نفسه ، لا يقوم بأي اجراء قبل مشورة المفتي ، وكذلك كيف ان المسلمين حريصون على مراعاة سمات الصلاة خمس مرات في اليوم حيثما كانوا وكيفما كانوا

منهمكين في العمل . واذا ما لاحظنا استقامتهم وعفتهم وطبعهم للنفس وغيرها من الفضائل الخلقية اعترانا الخجل بموقفنا الفاتر من الاخلاص والبر ومن تصفنا وافراطنا في السكر والدعارة والجور . ومما لا شك فيه ، ان اخلاصهم وتقواهم واعمال الرحمة بينهم من الاسباب الاصلية لعظمة الاسلام في حين ان اهمالنا للدين وفجورنا في الحديث ، عقبة كاداء في سبيل ظهور المسيحية . وهنالك آراء كثيرة من هذا النوع في كتاب آخر ويدعى بالافريقية Pansebaia اي راي في جميع كتب العالم الدينية ، وضعه نفس المؤلف اثناء مناقشته لاسباب انتشار الاسلام . ويقال بان هذا الكتاب كان اول مؤلف ظهر في اوربا حول الديانات المقارنة . وقد ترجم الى الالمانية ومن النقاط الهامة فيه ان المؤلف يدرج الاسلام - ويسميه « المحمدية » - مع المسيحية تحت عنوان « اديان اوربا » . لكن هذا لا يشتر دهشتنا بالطبع عندما نذكر ان الكتاب كان قد نشر عام 1653 اي عندما كانت الدولة العثمانية في اوربا الوسطى في اوج عظمتها .

وبعد مرور قرنين تقريبا على ظهور « البانسيبايا » ، كانت مشاطرة الاسكولنديين قليلة في تقدم الدراسات الاسلامية البطيء بين علماء الغرب المسيحي ، وخلال هذه الفترة كان قد طرا تقدم في جمع المعلومات الصحيحة حول تاريخ وعادات ومؤسسات المسلمين . لكن هنالك صورة مشوهة من الاسلام ومن اخلاق مؤسسه ، كان قد ثوارتها الفرييون من القرون الوسطى ، وهذه الصورة ولدت اثرا كان من الصعب التخلص منه . وفي عام 1697 وضع السيد همفري بريدو اوف نورويش Humphrey Prideaux of Norwich كتابا قيما من محمد بعنوان « طبيعة التدجيل الواضحة في حياة محمد » . وبالرغم من صبغة الكتاب العلمية فقد كان مقدما سبابا . وكان من المنتظر ان يكون راي مفكر خرم من ادوارد غيبون Gibbon في غير مصلحة الرسول فهو يرى ان الرسول في تصرفه الشخصي قد انغمس في الشهوات كانسان واساء استعمال ادعائه كرسول « وان مفاهيم كهذه لتراجع الى عهد كانت المسيحية فيه تشعر بانها مهددة من قبل الاسلام حريبا وروحيا كما ظهر ذلك مفصلا في كتاب نشر منذ يضع سنين في مطبعة جامعة ادنبره .

وكان الاسلام اذ ذاك مهيبا جدا الامر الذي جعل الصورة المشوهة منه تتركز في مخيلة الغربيين حتى انهم لم ينجوا من غوائلها تماما الى الآن .

ولكن تقديما عظيما كان قد وقع حينذاك في تصحيح التشويهات وذلك على يد الكاتب الاسكتلندي الشهير طوماس كارليل Thomas Carlyle و كارليل هذا لم يكن مستشرقاً في اللغة العربية او الاسلاميات . وكان قد القى في الثاني من شهر ماي 1830 ، سلسلة من المحاضرات من « الإبطال وعبادة البطولة في التاريخ » فكان من نصيب الرسول والاسلام المحاضرة الثانية بعنوان : « البطل كئيب » وكان كارليل قد قرا كتابا او اثنين من الكتب العلمية الرزينة التي استطاع الحصول عليها في اللغتين الانجليزية والالمانية . وقبل ذلك طالع القراءان من طريق ترجمة جورج سال George Sale معاولا ان يجدد لنفسه تجربة الرسول الدينية الاساسية غير انه لم يجد القراءان سهل القراءة ، وقد عبر عن ذلك بقوله : « يجب ان اصرح بان قراءته تتطلب مني جهودا عظيمة . فهو خليط مشوش وغير منظم فيه تكرر لا نهاية له كما انه طويل النفس ومبهم وليس هنالك ما يدفع بالادوي لقراءته سوى الشعور بالواجب . وانا لنجد فيه كما يمكننا ان نجد في اي وثيقة حكومية كميات لا تقرا من سقط المتاع من شأنها ان تجعلنا نأخذ بعض اللمحات من انسان عظيم .

ومع ذلك فان هذه المحاضرة كان لها قيمتها لان صاحبها كارليل هو الرجل الاول - من ذوي الشهرة العظيمة في اوربا - الذي كانت له الجرأة على التصريح علنا وبصورة مؤكدة بأنه يعتقد بأن محمدا كان مخلصا كما ان اشخاصا امثال ليبنتز Leibniz وكانت Kant وغوته Goethe كانوا على استعداد للموافقة على ان الاسلام كان تعبيراً للدين الصحيح و كارليل كان يثائر بغوته Goethe في هذه النقطة اذ اشار اليه مرتين في المحاضرة .

وعلى كل فان مساهمة كارليل الاساسية كانت عبارة عن تعبير تخيلي لتجربة الرسول الروحية وعلى حد تعبيره اي كارليل « تجربة هذا القلب العظيم المتوقد الذي يغلي ويخطف كاتون عظيم من الافكار . ان اعادة بناء تجربة الرسول لم تكن ولا شك منطبقة واصناف المنظر العربي الخلفي (الوضع العربي اذ ذاك) .

ومن بعض الجهات يمكننا القول بأن محمدا كان الصمد الذي تركز عليه آراء كارليل ، وهكذا فان فيه المعلومات المفصلة الكافية التي تجعلنا ننظر اليه كاحتجاج صريح ضد تشويه صفة الرسول كما هي في الصورة التقليدية ، وهي ولا شك مساهمة مخلص في فهم شخصية الرسول والاسلام فهما اكثر موضوعية .

وهكذا نراه يقول عن الرسول : فهو ليس باصدق الرسل طبعا لكني اعترف به كنبى صادق وعندما اشار كارليل الى اسطورة الحمامة التي دربها محمد لتلتقط الحب من اذنه والتي كانت ملاكا يملئ عليه قال :

لقد خان الوقت لمحو كل هذا اذ ان الكلمة التي القاها هذا الرجل قد جذبت الى الاسلام مائة وثمانين مليوناً من البشر في بحر الانبياء عشر قرناً ، وان عددا اكثر من المخلوقات تذكيمهم العقيدة في كلمة محمد اكثر من اي كلمة اخرى مهما كانت . ولذلك لا يمكننا ان نعتبر ان محمدا هذا كان تافها وممثلا مسرحيا ومخططا طموحا .

والمسألة الصعبة التي القاها لم تكن تافهة ايضا بل كانت صوتا جديدا ومختارا ينبثق من الاعماق المجهولة؛ كتكتلة نارية من الحياة انطلقت من جوف الطبيعة نفسها .

ان هذا التقدير الايجابي الذي اظهره كارليل لمحمد ، نجد له صدى في تقدير ايجابي للمسلمين المعاصرين من قبل شخص نظر الى الاسلام من اسوا ناحية وهذا الشخص هو دافيد لفنتون .

فقد كان يعرف ابعاد ما كانت تنطوي عليه تجارة الرقيق وعرفها كصنيع رجال من العرب يقطع النظر عن صفاتهم الجنسية الحقيقية والكلمات الاخيرة التي دونها في يومياته هي الكلمات المنقوشة على ضريحه في كنيسة وستمنستر وهي :

« كل ما يمكن ان اغيبه في وحدتي هو اللهم ارسل شاييب رحمتك الواسعة على كل انسان امريكي كان او انجليزيا او تركيا (مسلم) ممن يساعد على تضيق الجرح المفتوح في جثمان هذا العالم » .

وهذه هي العادة القديمة المتبعة التي كانت تستعمل فيها لفظة « تركي » بمعنى « مسلم » وعلى

التبشير . وتحت رعاية «كنيسة اسكتلندا الحرة» اخذ يهيء على نفقته التدايبر الاولى للقيام بارسالية تبشيرية في جنوب بلاد العرب حيث اقام بعض المنشآت في بلدة «الشيخ عثمان» قرب عدن ، لكنه توفي بتأثير جرثومة مبهمة وهو لا يزال في سن الواحدة والثلاثين ، وكان قبل وفاته قد نشر كتابا علميا وتم تعيينه ليملا « كرسي اللورد المونر » للعربية في كامبردج .

وكان هذا الكرسي الذي الذي فيما بعد ، لا يتطلب من صاحبه سوى القاء محاضرة واحدة في بحر كل عام دراسي ، وقد ادرك كيت فالكونر بأنه اذا ما اختار اوقات عمله بعناية يصبح بإمكانه اذا اقتضى الامر ان يقضي سنة وثلاثة ارباع السنة بصورة متواصلة في جنوب بلاد العرب دون ان يقصر بالواجبات التي يقتضيها كرسيه .

ومما صرح به آنذاك عندما كان يتفرس في زوجته العربية : « على كتب النحو العربية ان تكون متينة التجليد لان متعلمي العربية سيجدون انفسهم مضطرين الى قذفها بشدة على الارض وقد تحول جون كين فالكونر من اعمال التبشير الى العمل الاكاديمي وهي الفترة التي ندموها في تاريخ الدراسات العربية في كامبردج ب « الفترة الاسكتلندية للدراسات العربية » ومن اساتذة كمبردج الاولين في هذا الباب ولیم رایت William Wright (1889 - 1830)

فقد كان والده ضابطا في خدمة « شركة الهند الشرقية » واهه ابنة حاكم هولندي للسينفال ، وتشجيع والدته التي كانت هي نفسها مستشركة قديرة تخصص « رایت » في اللغات السامية في سنت اندرو ثم تابع دراسته في جامعتي هال Halle وبعد اشتغاله كأستاذ في لندن London وليبريغ Leipzig ودبلن Dublin ومراكز أخرى أصبح عام 1870 أستاذ العربية للسير طوماس آدام في كامبردج . وظل في هذا الكرسي 17 عاما بلغت انشاءها شهرته ذروة لم يصلها احد بعده . ومع انه نشر هذه نصوص عربية كانت تعتبر على جانب عظيم من الاهمية اذ ذاك ، فاننا لا نزال نذكره اليوم بفضل كتابه في النحو العربي الذي لا يزال متعة في حياة الطالب . والذي هو « مترجم عن كتاب كاسباري Caspari الألماني مع كثير من الإضافات والتصحيحات » ولكنه في الواقع من انتاجه ، وبفضله

ضوء ما سبق نرى كيف ان ليفنستون كان يقدر القيم الاسلامية حتى انه كان يعتقد بإمكانية التعاون بين المسيحيين والمسلمين للقضاء على الرق .

ومن الطبيعي ان تنتقل من ليفنستون الى المبشرين الذين اضحى الكثير منهم ضليعا بالعربية والعلوم الاسلامية فنذكر منهم :

1 - جون هوج John Hogg (1886 - 1833)

2 - ر. ي. غاردنر R. W. Gardner

3 - اسكندر باترسون Alexander Paterson (1933 - 1863)

اما هوج فكان صبيا « فحاما » من مقاطعة است لوتيان في « اسكتلندا » ، ممن قاموا بعمل عظيم لحركة التبشير البرستيريانية الامريكية في مصر العليا . اما الاخران فقد بدءا عملهما في منطقة « الشيخ عثمان » التي سيأتي ذكرها فيما بعد ، وفيما بعد أصبح باترسون مسؤولا عن انشاء مستشفى في مدينة الخليل بفلسطين : وبإمكاننا القول من جهة أخرى بأن هنالك اثنين من المبشرين قد اجتازا عتبة العلم في الدراسات الاسلامية هما :

1 - تامل فيردنير Temple Gairdner (1928 - 1873)

2 - جون كيت فالكونر John Keith-Falconer (1887 - 1856)

وكان اصغرهما تامل فيردنر - وهو ابن استاذ الطب في جامعة فلاسكو - قد كرس حياته لاهمال التبشير في القاهرة ، وقد بدأ عمله بداية طيبة بالكتابين الذين وضعهما وبمقال في مجلة « الاسلام » الالمانية مما يبشر بمستقبل زاهر لكن متطلبات عمله الإداري ووفاته وهو في سن الرابعة والخمسين حالت دون تفضله العلمي من ان يثمر .

واشهر المبشرين هو النبل جون كيت فالكونر وهو ايضا اكثرهم تنوعا ، وفي ايام دراسته في كلية هارو (Harrow) أصبح شغوفا بما كان يعرف اذ ذاك ب « رياضة السير على الدراجة » ، حتى انه كسب في ايام دراسته في جامعة كامبردج عدة مسابقات وانتصر على بطل العالم المتهن ببيع واحد او اثنين . وفي كامبردج درس اللاهوت ثم اللغات السامية لكنه اخذ يجذب تدريجيا الى اعمال

أخذ الطالب ينتعش من صدمة الفوضى في خضم
الإلغاط اللغوية .

خلف رايت في كرسيه ، اسكوتلندي آخر هو « وليم
روبرتسون سميث » William Robertson Smith (1846 - 1894) الذي كان قد نبأ في الماضي
روبرتسون سميث الذي كان قد نبأ في الماضي
كرسي اللورد المونر Almoner لفترة وجيزة ، ومع
أن مدة خدمته كانت قصيرة لكنها كانت مثيرة فقد
كان روبرتسون ابن قسيس في « الكنيسة الحرة
كما كان هو نفسه قد تثقف ليصبح قسيسا ، وقد
قضى سميث سنتين استاذا مساعدا في الفلسفة
الطبيعية في جامعة أدنبره قبل أن يصبح استاذا
للغات الشرقية وتفسير العهد القديم في جامعته
أبردين Aberdeen وهو لا يزال في الرابعة
والعشرين من عمره .

وكان ذلك سنتي 1870 و 1881 حيث عزل
من كرسيه لأن آراء بشأن بعض نقاط العهد القديم
كانت قد اعتبرت الحادية . وهناك أدركت كلا من
لندن وكامبردج عملاقية هذا العالم الذي طرد بهذه
الصوره من اسكوتلاندا فاتحت له الفرصة ليقضي
أكثرية ما تبقى من حياته في المدينة الأخيرة في
كامبردج حتى وفاته في عام 1894 وهو لا يزال في
سن الثامنة والأربعين . وأحسن ما يعرف به هذا
المستشرق في ميدان اللغة العربية المحض هو
كتابه : « القرابة والزواج في بلاد العرب القديمة »
الذي صدر في عام 1885 ويعتبر كتابا رائدا يعتمد
فيه على المصادر العربية في موضوع نسبه اليوم ب
« الأنثروبولوجيا الاجتماعية » أي علم الإنسان
الاجتماعي .

أن طلاب اللغة التركية كانوا دائما أقل عددا
من طلاب اللغة العربية ولم يشتهر في هذا الميدان
سوى اسكوتلندي واحد هو إلياس جيبون
ويلكنسون جيب Elias John Willkenson Gibb
الذي ولد في غلاسكو عام 1857 وتنقشف
فيها . وعن طريق « الف ليلة وليلة » وضع
تحت سحر الشرق . وفي سن الخامسة والعشرين
نشر مجلدا بعنوان « القصائد العثمانية » . وقبل
وفاته المبكر عام 1901 كان قد أكمل - مالاو - على
نشره كتابا أخرى - مؤلفه « تاريخ الشعر العثماني »

الذي ينم عن ثقافة عميقة مع تقدير لفن الجمال .
ولسخرية القدر أصبح اسمه معروفا بسبب وفاته
المبكر فقط إلى أن امتد وشاع إلى ما وراء الحلقة
المحدودة من المخلصين للشعر العثماني ، لكن اسمه
أوقفت باسمه منحة مالية تعرف بـ « ذكرى جيب »
وهي جمعية كانت قد نشرت ما يقرب من خمسين
مؤلفا هاما في اللغات العربية والفارسية والتركية ،
ولا تزال مستمرة في عملها .

أما مستشرق القرن التاسع عشر الاسكوتلندي
الذي ذاع صيته مع أنه لم يكن استاذا للعربية فهو
السير وليم الذي بلغ مستوى أكاديميا أرفع من ذلك
بسبب أنه كان عميدا لجامعة أدنبره لمدة 18 سنة (أي
ما بين 1885 ، 1903) .

وقد باشر السير وليم موير Sir William Muir
في أوقات فراغه - كموظف في الخدمة المدنية
في الهند كتابة مقالات عن حياة محمد أخذت تظهر
منذ عام 1855 في « مجلة كالكتا Calcutta Review »
ثم تكاثرت حتى كونت أربعة مجلدات نشرت في لندن
أما بين عامي 1858 - 1861 ، وقد تقع هذا الكتاب
في البدء مؤلفه ثم عقب عليه T. H. Weir of Glasgow
وفيما بعد ظهرت له أيضا طبعة أخيرة تقع في مجلد
واحد . وللأستاذ موير مؤلفات أخرى زادت في
شهرته كما كان يعمل في نفس الوقت - ويقدر
المستطاع - على تشجيع قضية جمعيات التبشير
المسيحي . وكمعيد لجامعة أدنبره يظهر بأنه كان قد
مكن لمكتبته من اقتناء جميع المؤلفات الخاصة
بالمواضيع الإسلامية التي نشرت إذ ذاك في أوروبا
كما قدم فيما بعد كتبه المختصة بالإسلاميات وغيرها
من المواضيع لنفس المكتبة التي تكون فيها ما هو
معروف بـ « مجموعة موير »

ومنذ 12 عاما أطلقت الجامعة اسم « معهد وليم
موير » على البناية التي تضم دوائر الدراسات
الشرقية . وكانت من عادة السيد وليم موير أن
يمتطي في كل صباح صهوة حصانه الأبلق ليصل إلى
الوادي القديم ثم يعود ، الأمر الذي كان يضفي على
جو الجامعة لونا شرقيا زاهيا وبراقا .

وبعد هذه الفترة بقليل ظهر اسكوتلندي
آخر يدعى « دونكان بلاك مكدونالد »
Duncan Black Macdonald أصبح أحد زعماء
الاختصاصيين بالدراسات الإسلامية في العالم وبقي

منسقة من قبل العلماء وستبقى في المستقبل بحاجة الى دراسة لتستغرق عدة اعوام اخرى . وقد سبق هذا العمل محاضرات Gunning التي نشرت بعنوان « اصل الاسلام في بيئته المسيحية » عام 1926 . وله كتاب آخر طبع بعد وفاته بعنوان « التعريف بالقروان » (1953) .

وكان شارل بل رجلا متواضعا حتى ان القليل من زملائه في ادنبره كان قد ادرك بأنه كان في موضوعه عملاقا لكن آراء العلماء بالطبع ترى هذه الامور من زاوية مختلفة . واني لا ازال اذكر السيدة بل وهي تتحدث بعاطفة قوية عن « تلك الاعوام العشرة الفظيمة » التي قضتها مع زوجها وهو غارق في عملية الترجمة هذه ، لكن صدى هذه الشكوى سيبقى قائما عبر القرون . واسمحوا ان اقض عليكم بهذه المناسبة ان هناك عالما مسلما عاش في القرن الثامن اعتاد عندما يكون في البيت ان يضع كتبه حوله ويستغرق فيها لدرجة كانت تجعله ينسى كل ما له صلة بهذا العالم . وكانت له زوجة واحدة في حين انه كمسلم يجوز له شرعا ان يتزوج من اربعة ، لكن هذه الزوجة المسكينة خلدت ذكراه عندما ابدت اذ ذاك هذه الملاحظة :

« يا لهذه الكتب ! فهي بالنسبة لي اقبح من ثلاث ضرات ! »

وهناك حقيقة اخرى حول ادنبره يمكن الاشارة اليها باختصار وتلك هي ان عميد الدراسات الاسلامية في العالم الناطق بالانجليزية ، السيد هاملتون جب ، الذي عمل استاذ في اوكسفورد ويعمل الآن في هارفارد بامريكا كان قد بدأ دراسته « العربية » هنا في ادنبره وتخرج منها بدرجة شرف .

والآن اعتقد ان ما ذكرناه فيه الكفاية عن الماضي فاسمحوا لي ان انتقل فيما تبقى من هذه المحاضرة الى الحاضر والمستقبل . واول ما يخطر على بالي « ماذا سيكون مصير الدراسات العربية والاسلامية اليوم وفي ما تبقى من هذا العصر ؟ »

ففي عصر الطائفة النفاثة ، نحن بعيدون جدا عن حصان السيد وليم موير الابلق كما هو بعيد عن شعوة ميخائيل سكوت . لهذا فان الجهود الاكاديمية التي تطلبها الطائفة النفاثة قد اخذت تحظى الآن بالتقدير وان الخبراء في الشؤون الداخلية والامور العسكرية يؤكدون بان الضرورة

لبضعة اعوام استاذ في مدرسة المعلمين في هارتفورد من اعمال كونكاستكت والناشر للمجلة الربعية المعروفة باسم : « العالم الاسلامي The Moslem World » واصبح فيما بعد الناشر المساعد في عمل علمي عظيم هو « الموسوعة الاسلامية » التي ساهم معه فيها العالم الفرنسي الشهير لويس ماسينيون المتوفى منذ سبعة اعوام . وبعد ان بلغ سن الثمانين وبموجب تقاليد الجامعات الاسكتلندية كانت العربية تدرس على الاغلب كموضوع ملحق للعبرية كما ان كثيرا من اساتذة العبرية كانوا هم ايضا اساتذة للعربية برغم انهم لم ينشروا اي شيء في هذا المضمار . ولكن هنالك استثناء يستحق الذكر هو الاستاذ : وليم بارون ستيفنسون William Baron Stevenson

الذي عمل مدة طويلة كاستاذ في جامعة غلاسكو . ولا يزال كتابه « الصليبيون في انشرق » الذي ظهر في عام 1907 واعتمد فيه على مصادر عربية يحتفظ بقيمته العلمية حتى الآن . وقد كتب ايضا عن « المغان الاسلامية » ولا يعني بذلك بالطبع مفاتن الجنس اللطيف الذي يصفى الثقاب عليه رونقا خاصا ساحرا . واللغة العربية أصبحت تدرس الآن مستقلة عن العبرانية في الجامعات الاسكتلندية كجامعة غلاسكو ، سن اندروز وابردين ، وكان لجامعة ادنبره كرسيا المستقل في اللغة العربية منذ 1913 اي منذ اكثر من نصف قرن وتذكر ممن اعتلى كرسي هذه المادة الاستاذ تريتون في هليكره ولندن ، وكان اول الاساتذة المستقلين في ادنبره .

ادوارد روبرتسون Edward Robertson الذي غادر ادنبره عام 1921 ليتسلم منصبا في « المتحف البريطاني » . وقد خلفه في الجامعة ، رشارد بل Richard Bell الذي كان يقال عنه بأنه قد ينهج منهج كارليل لا في خصوص مدح الاسلام فقط بل لانه كان ايضا قبل تعيينه في جامعة ادنبره قسا في وامفري Wamphray التي تقع قريبا جدا من مسقط رأس كارليل مما ساعده على ان يكون دعامة قوية لجمعية كارليل في ادنبره . ومن طريق دراساته للقرآن كون بل Bell لنفسه شهرة هائلة . وكان غرضه ان يطبق على القرآن اساليب النقد العالي التي طبقت على التوراة وذلك ليثبت (فيما يزعم) كيف ان الآيات القصيرة التي تكون نصه الاصلي قد طرا عليها تغيير جعلها ترتبط ببعضها لتكون النص الذي بين ايدينا . ان الترجمة في حد ذاتها عملية مفسدة تتطلب عناية خاصة كما انها لا تزال حتى الآن غير

الاستراتيجية كانت تتطلب ان يكون في البلاد اناس مزودون بمعرفة جيدة للغات الاسيوية والافريقية اكثر مما كان لدينا اذ ذاك . وعلى ضوء ذلك تم تعيين لجنة سكاربرو (Scarborough) التي ادى تقريرها الى توسيع في دراسات اللغات الشرقية في انحاء بريطانيا بعد الحرب وكان نصيب جامعة ادنبره من هذا التوسيع انها اضافت الى اللغات التي كانت تدرس الفارسية والتركية والارمنية كما وسعت دائرة اللغة العربية والدراسات الاسلامية علاوة على انشاء دورة دراسية للحصول على « دكتوراه » في التاريخ الاسلامي .

وهناك مرحلة اخرى من التوسيع استهلكت بتقرير لجنة هابتر Hayter عام 1961 ، يتصل اكثره بجامعة ادنبره حيث تم انشاء مركز للدراسات الافريقية يبشر باهمية قصوى للمستقبل .

وبالاضافة الى شمال افريقيا المتمدن من مصر الى المغرب والذي هو عربي ومسلم تماما ، فان العربية منتشرة في شرقي افريقيا وغربها .

ومن المعروف اليوم ان هنالك في افريقيا الغربية بضعة آلاف من المخطوطات والوثائق العربية لا تزال غير منسقة كما ان الاسلام اخذ ينتشر في القسم الجنوبي من افريقيا الصحراوية بخطوات اسرع من السحابة .

وقبل عام او عامين ، كان ما يقرب من ثلثي رؤساء الدول المستقلة في افريقيا مسلما ، وعند نهاية القرن ، من المحتمل ان يصبح الاسلام الدين السائد في افريقيا . ولهذا فان من المنتظر ان يكون مسرح التطورات الهامة في الحضارة الاسلامية في بحر السنوات العشرة القادمة ، في افريقيا .

ولبواث من هذا القبيل ، من المحتمل ان يكون للجمع بين الدائرة العربية ومركز الدراسات الافريقية اثره في زيادة ثمار الاستشراق في المستقبل ثم ان عدد ما وراء البحار في بريطانيا اخذ في الازدياد بصورة مستمرة كما يزداد ايضا عدد المستوطنين غير الاوروبيين القادمين من مختلف انحاء الكومنولث البريطاني .

وان تبادل الاساتذة والعلماء اصبح امرا جاريا به العمل كما اصبح هنالك اعتمادا عظيما بين سواد الشعب لقضاء بضع سنين في بلد اجنبي .

وعلى كل فالهم ان تؤخذ هذه الحقائق بعين الاعتبار . ويمكن ان يكون من الصحيح ان العالم اصبح يتكون حتى عام 1940 من بضع وحدات حضارية اهمها على راي الاستاذ توينبي هي :

1 - الحضارة الغربية اي (الاوروبية - الامريكية)

2 - المسيحية الارثوذكسية اي (جنوب شرقي اوربيا وروسيا)

3 - الهندوسية

4 - الشرق افصوية

5 - الاسلامية المنتشرة من غرب افريقيا عبر الشرق الاوسط حتى ماليزيا واندونيسيا

وهناك مناطق تتداخل فيها حضارتان بسبب الاحتكاك بين هذه الحضارات وان كان هذا الاحتكاك حيث تحتفظ كل واحدة منها بخصائصها . والاستثناء الوحيد هنا هو ان الحضارة الغربية او الاورو - امريكية اخذت منذ بضعة قرون - وخاصة منذ عام 1800 - تتعدى اطرافها لتنتشر في مناطق الحضارات الاخرى ثم ان علومها وتكنولوجياها قد اصبحت عالية في حين ان آراءها وقيمتها لم تحظ بنفس الدرجة من القبول . وبانهيار الامبريالية اي روح التوسع والاستعمار وظهور كثير من الدول المستقلة ، اخذت الحضارات القديمة تندمج لتعمل على اعادة تثبيت شخصيتها في هذا العالم التكنولوجي .

وهكذا فانا نجد في عصر الطيارة النفاثة اليوم مظهرين متكاملين يتفقان وهذا الحوار :

1 - اختلاط عظيم بين البشر من اصول ثقافية متنوعة اي مختلفة .

2 - استعادة الشعور بضرورة تثبيت الهوية الشخصية عن طريق حضارات الشرق الاوسط وآسيا القديمة .

3 - وحتى ربما تشعر هذه الحضارات بان لها رسالة تهبها لبقية العالم .

وهكذا مع ان علمنا وتكنولوجيانا يعمان الكثرة الارضية فان التقدم ربما لا يتم الا على حساب تقلص مواهب او خصائص انسانية اخرى . وهناك مبرر ضعيف يجعلنا نعتقد بان حضارتنا في جميع

ان تجهز الرجل المثقف في عصر « النفايات » بشيء من التقدير العميق لتلك الحضارات .

وقد أصبح علينا ان نتطلع الى الوقت الذي سيصبح فيه تراث الحضارة الاسلامية مع تراث حضارة اسيوية اخرى يدرسان ويحترمان جنباً لجنب مع الحضارتين الاغريقية والرومانية كدراسات كلاسيكية لعالم واحد .

وعندما يصبح مفهوم « الدراسات الكلاسيكية » اي القديمة على هذا الخط الواسع سيؤثر ولا شك على التربية المدرسية .

وها نحن نرى كيف ان بعض اللغات الشرقية الصعبة أصبحت لاسباب عملية ايضا - تعلم في بعض المدارس . هنالك مدرسة انجليزية واحدة لديها صفوف في اللغة الصينية في حين ان عددا عظيماً من المدارس العالية في شرقي الولايات المتحدة تعلم اللغة العربية . وهنالك ، كما ذكرت ، اسباب تربوية لوقوع تقدم كهذا .

واني اود بعد هذه اللوحة التي مرصتها من المساهمة الاسكوتلاندية الواسعة في الدراسات الاسلامية ان اوصي المديرين والمديرات بادخال العربية (او الصينية او السنسكريتية) في مدارسهم . فالعربية اسهل من الصينية وان نحوها يحوي شواذ اقل مما هي عليه في الفرنسية كما ان كتابتها ليسبب باصعب من الاختزال . لكن مفرداتها هي ولا شك ثنية جداً نعم ان العربية في المدرسة لن تكون ذات فائدة عملية لكنها تكون مساهمة قيمة في الثقافة باوسع واعمق معانيها . وفي الختام فاني ارجو ان تلعب اسكوتلندا دوراً هاماً في العمل المستمر وذلك في جمل الاوروبيين والأمريكان بلفون درجة اعمق في تقدير القيم البعيدة المدى للحضارة الاسلامية .

الوجه الاخرى ما عدا العلوم والتكنولوجيا هي الافضل . فكما ان جميع الدول في الاسم المتحدة هي على مستوى متقارب هنالك ايضا مساواة في المصمار الثقافي بمعنى انه من الواجب علينا ان نتقدم امام الثقافات الاخرى ونحن مطاطون الراس متاكدين - بكل تواضع - باننا ربما سنقع على شيء فيه ما نتعلمه من اولئك الذين اعتدنا ان ندموهم ب ... Lesser breeds without the law

ان هذه الكلمات هي ولا شك معروفة لديكم ولكن كل ما في الامر هو اننا اخذنا نتحقق بأن لها مشاكل اكااديمية وقد كان الباعث على تكوين لجنتي سكاربرو وهابتر عملياً ونفعياً كما ان ازدياد الاهتمام باللغات الاخرى كالروسية والصينية ، ربما يرجع الى التاكيد بأن هاتين اللغتين سيكون لهما شأن عظيم من الناحية العملية في المستقبل . نعم ان هنالك مظهراً آخر يجب ان لا يعزب عن بالنا وهو انه كان علينا ان نعيش في عالم تلتقي فيه حضارات متنوعة على اساس المساواة ، فهل من المفيد ان تكون لدينا ثقافة مقصورة على الحضارة الاوروبية او الاورو - امريكية ؟ نعم ان الصحفيين والمعلقين على الاخبار لا يألون جهداً في اعطاء الرجل المتوسط بعض الافكار من حقيقة الاحداث الجارية في آسيا وافريقيا وذكر يواشها ، لكن الجامعة عليها ان تنظر الى ابعد من هذا وان تجابه بعض الدراسات العميقة في الحضارات غير الاوروبية ، ثم ان دراسة عميقة كهذه لا يجوز تركها لبعض المتحمسين لها او المتفردين بها بل يجب نشرها على نطاق واسع بين مخرجي الجامعات . ويظهر انه من المحتمل ان لا يعتبر الشخص في عام 2000 مثقفاً فعلاً الا اذا كان قد حصل على بعض الدراسات في حضارة غير اوروبية تكون على مستوى الثقافة الجامعية ، وقد أصبح من الواجب على الادارات التي تعالج حضارات آسيا وافريقيا ولغاتهما،